اللغة العربية والدين
كيف يتم توظيف الأدب العربي في الفقه العماني
ابن النضر نموذجًا

أ . شمسة بنت عبيد بن سالم الهنائية

يعد الأدب أحد أشكال التعبير الإنساني عن مجمل عواطف الإنسان وأفكاره بأرقى الأساليب الكتابية التي تتنوع من النثر إلى النثر المنظوم، إلى الشعر الموزون على أن الأدب يرتبط ارتباطًا وثيقًا باللغة فالنتاج الحقيقي للغة المدونة والثقافة المدونة بهذه اللغة يكون محفوظا ضمن أشكال الأدب وتجلياته والتي تتنوع باختلاف المناطق.

فالأدب هو "علم يشمل أصول فن الكتابة، ويعنى بالآثار الخطية النثرية والشعرية، وهو المعبِّر عن حالة المجتمع البشري، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس، أو أهل حضارة من الحضارات"(١).

وأما الفقه فهو "الفهم من فَقَهَ يفقه إذا فهم، أي الفقه هو الفهم بدين الله تعالى من عقيدة وشريعة"(٢) وهو "وسيلة للسعادة في الدارين، إذ هو العلم الذي ينظم علاقة الإنسان مع خالقه، ومع نفسه، ومع أخيه الإنسان"(٣)

وقد صاغ الفقهاء العمانيون عقيدتهم وفقههم بأسلوب أدبي راق، وعبارات بليغة منسجمة، خالية من التعقيد، زاخرة بفيض من البلاغة والبيان، ومعدن من النبوغ...

ومن هنا فليس بغريب أن يدخل الأدب في إطار الفقه، ويزينه بالرقة والسلاسة من غير تفخيم، وباللطافة والسهولة من غير تكلف ولا صنعة، ولاسيما أن الفقه من غير الإطار الأدبي هو علم جاف قد لا تتقبله النفوس ولا تقبل عليه، ومن هنا زان فقهاء عمان فقههم بهذه الصياغة الأدبية التي تقبل عليها نفس المتلقي.

وقد كان ابن النضر صاحب الكعب العالي في هذا المجال -من علماء القرن ٦هـ -فهو أخضع ناصية الشعر، وقد مارن العروض والقوافي، فبلور الفقه الإسلامي ووضعه في قالب شعري جذاب؛ ليكون قريبا من القلوب وتقبله النفوس، وذلك في كتابه "دعائم الإسلام".

ويتضمن الكتاب مجموعة قصائد شعرية في علمي الأديان والأحكام الفقهية على قوافٍ متنوعة، وأبحر متعددة، ويمثل حسب طبعة دمشق ثمانية وعشرين قصيدة(٤)، وصل عدد أبيات بعضها مئة وسبعة وتسعين بيتا، وكان عدد القصائد التي جاوزت مئة بيت خمس عشرة قصيدة ومنظومة(٥)، ويُقال إنه ذهبت منه أربع قصائد في الأحكام، وقصيدة في الصلاة، وقصيدة في الولاية والبراءة(٦)، وقد افتتح ابن النضر أول قصيدة من قصائد كتابه القيم والرائع بهذه الأبيات الجميلة الرقيقة: (من الطويل)

تَأوبَني دَاءٌ دخيلٌ فلمْ أنمْ
وَبتُّ سَميراً للهُمُوم وللهَمَمْ
وَمَا بيَ عِشْقٌ للَذينَ تَجَمَّلُوا
وَلا جزعٌ مِنْ بَيْنِهم لا ولا سَقَمْ (٧)

وعلى الرغم من أن كتاب الدعائم في جزء واحد، بيد أن فائدته عظيمة، فمن يقرؤه يعي أنه أمام علم وافر، ومعين لا ينضب، وهذا يدل على منزلة كتاب الدعائم لابن النضر، وقوة بلاغته العربية، وعذوبة لغته.

مكانة الكتاب العلمية:

لقد احتل كتاب (دعائم الإسلام) مكانة سامقة عند الخاصة والعامة، فعكفوا عليه دراسة وشرحا وحفظا، فنجد أغلب قصائد الدعائم محفوظة عند الكثيرين حتى عند بعض العوام لا

سيما مقدمات القصائد لما اشتملت عليه من الوعظ الحسن وجميل الحكم(٨)، وبلغت شهرته خارج أحواز وطن مؤلفه، حيث عني به علماء المغرب شرحا وحفظا وإعرابا كما عني به علماء عمان، فهو كتاب مشهور لدى العمانيين، حتى أصبح عامة الناس يقتنونه؛ ونظرا لإعجابهم بالكتاب وخاصة استهلالاته الرائعة، فكانوا يطالعونه بكرة وأصيلا، وما وجدوا من وقت فراغ إلا وشغلوا أنفسهم به، كما أنهم كانوا يحضرونه أوقات مسامراتهم الليلية، وحلقاتهم الأدبية .

مؤلِّف الكتاب:

ومؤلف كتاب الدعائم هو الشيخ العلامة أحمد بن سليمان بن عبد الله بن أحمد بن الخضر بن سليمان من بني النضر السمائلي، من علماء القرن السادس الهجري، وشهر بابن النضر، كان علامة حافظا واعيا مضطلعا بفنون العلم ومطلعا على التواريخ والسير، بحرا زاخرا في اللغة العربية، وكان يحفظ من شعر العرب أربعين ألف بيت(٩).

مولده ووفاته:

تبخل علينا المصادر التاريخية في ذكر تاريخ دقيق لميلاد أحمد بن النضر وتاريخ وفاته، إلا أن هناك مصادر تقول إنه عاش في القرن السادس الهجري وأخرى في القرن السابع الهجري، ومن الباحثين المؤرخين من يرى أنه عاش في منتصف القرن الخامس الهجري، وكلها تؤكد أن حياته دامت خمسة وثلاثين عاما فقط ...(١٠)

وقد رثاه ابن زكريا شعرا ومنه هذان البيتان: (من الطويل)

فحسْبُك مَنْ تَثْني عليهِ دفاترُه
وتفْقِدُهُ أقلامُهُ ومحابِرُه
فكَمْ لبني الأيام والدهْرُ ألسُنٌ
أوائلُهُ تثْني لهُ وأواخِرُه(١١)

مؤلَّفاته:

من تأليفه، ما عدا كتاب " الدعائم " كتاب " سلك الجمان في سير أهل عمان " مجلدان، قيل: لم يوجد منه سوى تسعة كراريس محروقة، وكتاب " الوصيد في ذم التقليد " وكتاب " مرآة البصر في جمع المختلف من الأثر " أربعة مجلدات، وقد ذهبت هذه المؤلَّفات الثمينة؛ وذلك لتسلط أمراء الجور واضطهادهم للعلماء(١٢)، ولهذا فقدنا ثروة علمية من مصنفات ابن النضر.

أدبية ابن النضر وشاعريته:

وابن النضر ذو قوة شاعرية كبيرة، وذكاء وقاد، وذاكرة نشيطة؛ ولذا استطاع بعلمه، وغزارة إنتاجه أن يقدم لنا عطاءً متميزاً أضاف فيه إلى عطائه العلمي العطاء الشعري، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى عذوبة اللغة، ورقة الأدب لديه، وسبك المعاني بألفاظها، وكأنها وشي منمنم أبرزه ابن النضر في قصائده، خاصة أبيات استهلالاته التي تفوح أدبا، وبيانا ووصفا ينير القصائد من مطلعها حتى نهايتها.

وقد نظم كتابه بأسلوب بلغ الغاية في البلاغة، وجمال التعبير، والفصاحة، كما أنه عبر عنه بأسلوب فكري، وجمع فيه بين الشاعرية والعلم، حتى قيل عنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء(١٣).

وقد أشار الشيخ أبو نصر الملوشائي إلى أدبية ابن النضر: (من الطويل)

عَلى أَنَّ شَمْسَ العَصْرِ شَيْخٌ مبرزٌ
أَتى ببَديعِ الصُّنْعِ بالنَّظْمِ والنَّثْر (١٤)

وقد ظهرت شاعرية ابن النضر مبكرة، فنظم الشعر وهو صغير دون الثانية عشرة من عمره، ويقال إنه كان ينظم القصيدة الطويلة في ليلة واحدة، وقد تميزت شاعريته الدافقة بأبيات بالغة الروعة في الفن الشعري خيالا وصوغا؛ لذا انتشر صيت ديوان الدعائم في شتى البلدان، وقام بشرحه والتعليق عليه كثير من العلماء والفقهاء من أهل عمان وغيرها(١٥).

شكل القصيدة الفقهية عند ابن النضر:

ويُعدّ ابن النضر في مطلع الفقهاء العمانيين الذين اعتنوا بشكل القصيدة الفقهية العمانية ومضمونها، حيث قسموها أربعة أقسام وفق ما ذكره النقاد العرب:

أ – المقدمة وحسن المطلع.
ب – الخروج والتخلص.
جـ -الموضوع.
د – الخاتمة.

وقد عمد ابن النضر على تنميق قصائده الفقهية وزخرفتها؛ فمهد لها بمقدمات أدبية جميلة؛ لتظهر بشكل محبب ومقبول لدى المتلقي، ويستسيغها بصورة أفضل، فظهرت موضوعاته زاهية بما قدم لها وبما ختمها من أطر أدبية، وهو مما سماه النقاد " هيكلة القصيدة ".

فمن مقدماته في موضوع النكاح قوله في نوائب الدهر وحدثانه: (من الطويل)

هو الدّهرُ يأسُو مَنْ أراد ويجرحُ
وأحْداثُهُ في الشُّمَّخ الشُّمّ تُقدحُ
أتدري غدا مَنْ أهلُه وهْو قادمٌ
لعلّ غدا فيه حمامُك يسْنحُ
فإنْ كنتَ ذا عقل فعُدّك ميّتا
وإن كنْت حيّا حين تُمسي وتُصْبحُ
فكمْ من عزيز باشرَ الموتُ نفسَهُ
مفاجأةً وهوَ الجليدُ المُصحّحُ(١٦)

يقول الدهر يجرح ويداوي، وأحداثه عظيمة كالجبال العالية، فإن كنت ذا عقل فحضر نفسك لحدثانه.

وقد واصل ابن النضر مثل هذا الحديث بمقدمة أخرى تحمل بين جوانبها معاني أسمى فقال مقدما لموضوع الطلاق: (من الوافر)

أفقْ قبل التأوّه والفهَاق
وقبل نُشوب روحك في التّراق
وقبلَ صبيحَة ما من مساء
لطلعتها عليْها ولا فَواق
وقبل وداع أهلك بافتراق
وشَحْط لا يؤولُ إلى تَلاق
إذا اعْتجَمَ اللّسانُ فلم تجبْ مَنْ
دعاكَ ولسْتَ بالعيَ الطّباق(١٧)

وتتميز قصائد ابن النضر بالاستهلالات الرائعة فمنها في موضوع السَّلَم قوله: (من البسيط)

أوْحُوا بتسْليمهم سرّا كما انْصرفُوا
ما كان لو أنّهم عاجُوا ولو وقَفوا
أصَمَّ سرُّهم أذنيك إذْ بَكَروا
والطّرْفُ منك بطَيّات النّوى طرفُوا(١٨)

فهذا استهلال بارع قاله ابن النضر في الترحال والبعد عن الديار.

وبعد أن ينتهي من مقدماته يخلص منها ببيت أو بيتين مناسبين لما يتبعهما من كلام، فمن تخلصاته في موضوع " المكاتب والولاء " قوله: (من مجزوء الكامل)

وتفاضلَ الأقْوامُ أكثرَ
في الطّبايع والمساعي
والنّاس مثلُ الأرض شتّى
في المذاهب والطّباع(١٩)

ومن تخلصاته الحسنة أيضا ما قاله في موضوع النكاح: (من الطويل)

فلا يقطعُ البيْداءَ إلّا مُصمّمٌ
مُشيحٌ وفي أهوالها مُتطرّحُ
ولا يسْتحقُّ العفوَ عن ذنبه امْرؤٌ
مُصرٌّ ولكنْ تائبٌ ومُصرّحُ
ولا يخطبُ الحوراءَ مَنْ كان همّهُ
عَشاءٌ يُعشّى أو صَبوحاً يُصَبّحُ(٢٠)

ويتواصل ابن النضر في نظمه القصيدة الفقهية، ويدخل في الموضوع مكملا ما تم الحديث عنه، ومن موضوعاته التي وضحت فيها أدبيته ما قاله في الفرائض: (من الطويل)

حسابُ أصول الفرْض في القَسْم ستّةٌ
إذا لم يكنْ في القَسْم رُبعٌ مُوقّعُ
ومنْ سادس يعلو بها العَولُ صاعداً
إلى عاشر ينحطُّ عنها ويرفعُ
فإنْ كانَ فيها السُّدْسُ والرّبْعُ ضوعفتْ
فصحّتْ إذا ما ضوعفت حين تَجمعُ(٢١)

ويأتي الموضوع عند ابن النضر بمنزلة العمود في البيت، فعليه تستند القصيدة الفقهية، ويتمثل ذلك في حديثه عن موضوع الزكاة، وفيه يتوجه بالنصح لجامع المال أن يؤدي زكاته مبينا له أنّ ما بخل به سيؤول إلى غافل يبدده، وهو قوله: (من السريع)

ومنْ زكاة فرضُها واجبٌ
على أولي الأموال لم تُمنعُ
يا جامعَ المال على أنّهُ
تَتركُهُ ويحَكَ ما تصْنَعُ
جمعتَهُ ثُمّتْ خَلّفْتَهُ
لغافل لم يدرِ ما تجمعُ
فعاثَ فيما كنتَ عن أكلِه
نفسكَ إنْ تاقتْ له تردعُ(٢٢)

الخاتمة:

وتمثل الخاتمة قفل القصيدة، فقد اختتم ابن النضر قصائده الفقهية بما كان يراه مناسبا للموضوع الذي سبق له طرقه في هذه القصيدة أو تلك، ومما ختم به موضوعه في " صلاة العيدين وغسل الميت " قوله مشيرا إلى فنه فيما نظمه وأبدعه: (من الوافر).

تريحُ الهمَّ عنكَ فما تُبالي
إذا أنشدْتَها قَراً وحَرّا
حياكةَ ماهر ونتاجَ غَضٍّ
تملأُ حقْبةً خيْرا وشرّا(٢٣)

أجمع النقاد على أهمية الخاتمة في القصيدة، وقال ابن رشيق في ذلك: " أما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له، وجب أن يكون قفلا عليه " (٢٤).

ومن هنا ينبغي على الشاعر ألا يبقي قصيدته مقطوعة معلقة، فيجعل القارئ أو المستمع ينتظر بقية الكلام. ولعل من أمثلة الخاتمة الجيدة ما نظمه ابن النضر في موضوع التوحيد، وهو قوله: (من الطويل).

لعلّكَ أنْ تُسقي الرحيقَ مُرافقاً
نبيَّ الهُدى يسعى عليكَ بها الخَدَمْ
فتُصبح في الفردوس بالحُور مُعرساً
سليماً من الأحْداث والسُّقم والألمْ(٢٥)

فالخاتمة هنا دينية؛ وهي الدعاء

للمتلقي أو السامع بالجنة، ومرافقة النبي – عليه الصلاة والسلام – كما أنها مناسبة للموضوع العقائدي الذي طرحه ابن النضر، فقد يأذن الدعاء بانتهاء الكلام؛ لأن الاتيان بالدعاء في نهاية الكلام، يخبر السامع بنهاية الحديث، وأنه ليس هناك حديث يتشوق من ورائه ...

والرأي أن يكون آخر الكلام مستعذبا حسنا، مؤذنا بالانتهاء؛ لتبقى لذته في الأسماع؛ بحيث يبقى المستمعون يحسون ببلاغة المتكلم، ويتمنون الاستزادة من حديثه.

وأيضا من محاسن نهاياته قوله في الفقد والخيار: (من الرمل).

فعَلى اللهِ اتّكالي إنّهُ
عاصمي مِنْ كلّ بؤْسٍ وكند
وبهِ ألجَأ خوفاً إنّه
أحدٌ ذو رحمةٍ فردٌ صمد (٢٦).

إنّ القارئ لهذه الأبيات يشعر أنه على عتبة ختام القصيدة، وذلك من خلال تدرج ابن النضر في عرض قصيدته، حيث انتهى بالتوكل على الله تعالى في الأمور؛ لأنه هو العاصم. ويؤكد ذلك الهاشمي في قوله: " أن يكون الختام مؤذنا بتمام الكلام، بحيث يكون واقعا على آخر المعنى، فلا ينتظر السامع شيئا بعده، فعلى الشاعر والناثر أن يتأنقا فيه غاية التأنق، ويجودا فيه ما استطاعا؛ لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع، ويتردد صداه في الأذن، ويعلق بحواشي الذكر فهو كمقطع الشراب، يكون آخر ما يمر بالفم، ويعرض على الذوق، فيشعر منه بما لا يشعر من سواه. "(٢٧).

ومن خواتيم ابن النضر أيضا هذه الحكمة المعبرة التي أنهى بها بعض قصائده، وهي تعد من أجود النهايات، قوله: (من الوافر)

فليْسَ لمن تغَطْرسَ من نصيب
لدى يَوم الحساب ولا خَلاقِ(٢٨)

فالمرء المعجب بنفسه والمتطاول على الآخرين ليس له أخلاق، كما أنه يوم القيامة ليس له حظ من الآخرة.

وكذلك من خواتيمه الحكمية قوله: (من البسيط)

يا مائلَ الرّأسِ إنّ الحقّ منبلجٌ
والليلُ مُنفرجُ الظّلماء فاعتدلِ(٢٩)

فابن النضر يرى أنه مهما طال ليل الظلمة فالحق سينبلج ويظهر، فيا من أمال رأسه تيها وكبرا اعتدل وعد إلى الصواب وهو مما يذكرنا بقول بشار بن برد، حين قال: (من الطويل)

إذَا الملكُ الجبّارُ صعّر خدّهُ
مَشينا إليهِ بالسّيوفِ نُعاتبُهْ(٣٠)

والفارق بينهما أن ابن النضر يريد من المرء الاعتدال من خلال الحقيقة التي قالها بظهور الحق، وانبلاجه وزوال ليل الظلمة، في حين أن بشارا فرضها فرضا على من صعر خده عن الحق.

وسائل التصوير (الأدوات الفنية)

كما ظهرت أدبية ابن النضر في قصائده الفقهية التي لا تكاد قصيدة له تخلو من فنون البيان، كالتشبيه والاستعارة وغيرهما من الأدوات الفنية التي استخدمها الفقهاء العمانيون فيما أطروا به قصائدهم الفقهية من أدب مشوق، ولتوضيح ذلك نبدأ بأول هذه الوسائل:

التشبيه:

يُعدّ التشبيه سلاح الشاعر في بيان الصورة الفنية، ونقلها إلى المتلقي بطريقة واضحة، وقد عرفه كثير من النقاد، يقول عنه ابن رشيق: " صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو من جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إيّاه "(٣١).

وقد شكّلت الصور الفنية ثروة فكرية، ولغوية في أشعار الفقه العماني، على نحو ما نجد عند ابن النضر أحد الفقهاء العمانيين الذين اهتموا بتوظيف الفكر في تشكيل أشعارهم الفقهية.

وعلى العموم فالشاعر المبدع هو الذي يتميز بلمساته الفنية الرائعة، وصوره الابتكارية، ولعل من صور الابتكار والتجديد عند ابن النضر قوله: (من السريع)

كأنّما السَّطْرُ إذا شمْتَهُ
يُسرّ بالضَّحكِ إلى السَّطْرِ
كعقْدِ غيداء على حجْرها
مُفَصَّلٌ بالدُّرِّ والشَّذْرِ (٣٢).

وتمثلت الصورة الفنية هنا عند ابن النضر في التشبيه؛ فقد شبه صورة سطر الكتاب يُظهر بالضحك في حالة النظر إليه بصورة عقد في حجر فتاة ناعمة، بجامع الجمال في كل منهما. فهذا التشبيه التمثيلي ألبس المعنى حُلّة منقوشة، فخرجت الصورة لنا جلية واضحة.

ومن أدبيات ابن النضرأنه دقق في اختيار بعض الجزئيات الموحية فقال: (من بحر الرمل)

شَمْسُ خِدْرٍ شاكِهَتْ شمسَ الضُّحى
بِجَبينٍ مُشْرِقِ اللَّوْنِ يَقِقْ(٣٣)

فهو شبه امرأة في خدرها وسترها بالشمس في طلوعها وظهورها، وخص باللون المشرق جبينها الأبيض.

الاستعارة:

تمثل الاستعارة جانبا من جوانب الصورة الفنية، وهي إبداع يَظهر عند الشاعر، وبها يقاس نفاسة شعره، وهي تشبيه حُذف أحد طرفيه، تعمل على تعميق فاعلية الصورة الفنية في شعر الشاعر.

والاستعارة لا تكون إلا للمبالغة، وهي استعمال العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللغة (٣٤)، وهي " ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي " (٣٥).

وهي " تكسب المعنى القوّة، والوضوح، والجلاء، وتبرز الفكرة في لوحة بديعيَّة، يتضح على صفحتها كل معالم الإبداع والفن، وتُحلِّق بالسامع في سماء الخيال فتصِّورُ له الجمالَ حيًّاً ناطقاً، والزَّهرَ باسماً، والأمل غادةً حسناء " (٣٦).

وقد وضحت الاستعارة في ثقافة ابن النضر الفقهية في قوله: (من الطويل)

أَبَعْدَ اشْتعالِ الشَّيبِ يا سلمُ صَبْوَةً
وتحنيبِ أوصَالي ودقّة أعظُمي(٣٧).

فقد شبه شعر الشيب المنتشر على رأسه بالنار، فحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي كلمة " اشتعل "، فصاغ هذا المعنى بصورة فنية رائعة وهي الاستعارة المكنية.

ومن أمثلة استعارته كذلك قوله: (من بحر الوافر)

تُريحُ الهَمَّ عنكَ فما تُبالي
إذا أنْشَدْتَها قُرّا وحَرّا(٣٨)

شبه الفقيه ابن النضر القصيدة بإنسانة قريبة تزيل الهم وتبعده عن قارئها، فما يبالي إذا أنشدها في الصيف أو الشتاء، على أنه حذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهي لفظة (تريح) فالاستعارة مكنية.

الكنـــايـــة:

تمثل العدول عن التصريح بالشيء، وهي " لفظ أُطلقَ وأُريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى "(٣٩)، وتُعدّ أحد مكونات الصورة الأدبية، وتأتي الكناية عندما " يريد المتعلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إليه معنى هو تاليه وردِفُه في الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلا عليه "(٤٠).

وعندما يعبر الشاعر عما يجول بخواطره فإن تعبيره يختلف عن تعبير غيره " لأن خياله يثير ما لا يدركه كثير من الناس، ولأن معرفته بأسرار الوجود، وقواه الكامنة، وتعمقه فيها يجعله أكثر نفاذا إليها، وسبرا لأغوارها، وتأملا فيها، ثم صدورا عنها "(٤١).

وقد عمد ابن النضر إلى تجميل صوره، وما يدور بداخله من مشاعر، وأفكار وخواطر، فقد وصف نهاية عمر الإنسان، وكنى عنها بصورة واضحة، في قوله: (من الوافر)

عَشا العَيْنَينِ مع قَسمِ الثّنايا
وتحنيبِ المفَاصِلِ والشّحُوبِ(٤٢)

فضعف النظر، وذهاب الثنايا واعوجاج المفاصل والشحوب كلها دالة على تقدم عمر الإنسان ونهايته.

وكذلك قوله: (من الوافر)

بلى فَزِع العَنانَ عن التّصابي
وجِلْدُك باردٌ والمخُّ رِيرُ(٤٣).

فالجملتان الاسميتان المتعاطفتان (جلدك باردٌ، والمخ ريرُ) كناية عن مدى ضعف الإنسان في مرحلة الشيخوخة، فالكناية أبرزت المعنى، ووضحته، فهي ألجأت الفقيه إلى التلميح دون تصريح سابق بما يصيب المرء في أثناء الشيخوخة.

ومن كنايات ابن النضر كذلك قوله: (من السريع)

يريشُ أقْواما ويُبريهُمُ
وكلُّ ذي ريش لهُ يبري(٤٤)

فقد كنى بـ " (يريشُ أقْواما) عن جعلهم ينعمون بالرفاهية وسعة العيش، وبـ (يُبريهُمُ) عن ضنك العيش وعسرته.

ولا شك أن التعبير بالصورة يعطي العمل الفني قيمته ويهيئه للقبول، ويزيد المعنى وضوحا ورسوخا، وقد أدرك الشعراء ذلك فراحوا يصوِّرون بها ما يختلج في نفوسهم من مشاعر، وما يشغلهم من قضايا بارزة في مجتمعاتهم(٤٥).

وحقيقة القول إنّ " الصورة الفنية تعد الوحدة البنائية في القصيدة الشعرية، وكلما كانت الصورة الفنية لدى الشاعر متنوعة وعميقة وغنية، وأثارت الخيال، ونقلت التجربة الشعورية بصدق من الشاعر إلى المتلقي كان الشعر نفيسا "(٤٦).

المعجم الشعري:

يمثل المعجم الشعري وعاءً كبيراً ومخزوناً لفظياً هائلاً، وبحراً خضماً يورد منه الشاعر ما تهواه نفسه من ألفاظ وكلمات رائعة مناسبة لما يريد الحديث عنه...

ولم يكن تكوّن أو تشكّل المعجم الشعري لأي شاعر نابعا من فراغ، وإنما بفعل ثقافته الخاصة، وتجربته في الحياة، ومدى خوض هذه التجربة، والحصيلة الثقافية التي يحصل عليها من خلالها.

وعلى الشاعر أن ينتقي من الألفاظ " ما خف جرسه على السمع، ووصل تأثيره إلى القلب فأجاد تنسيقه وصقله مرة بعد أخرى، حتى إذا سمعته رأيت فيه قوة جاذبة وحسنا شائقا يدفعك إلى الإصغاء "(٤٧).

ومن هنا شكل الفقهاء العمانيون في مدوناتهم الفقهية معجما شعريا ثريا، وزادا لغويا غنيا، ومحصولا معرفيا وافرا يكشف عن مقدرتهم اللغوية في اختيار الألفاظ التي تشف عن أهم الأفكار المهيمنة على أشعارهم. يقول أحد النقاد: "إننا لكي نكشف عن روح شاعر ما، أو على الأقل عن شواغله العظمى، علينا أن نبحث في أعماله عن أكثر الكلمات دورانا، فهذه الكلمات هي التي تبوح بهواجسه الملحة "(٤٨).

ومن الأبيات الشعرية التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الموضع قول ابن النضر: (من الكامل)

أهلاً بشهرِ الصَوم منْ شهرِ
بالناطقِ المحمودِ في الذّكرِ
أهْلا به وصيامه وقيامه
خيرِ الشّهورِ وسيّدُ الدّهرِ
نزلَ القرآنُ على النبيِّ محمّدٍ
فيه وفيه ليلة القدْرِ(٤٩)

فالألفاظ (الناطق، المحمود، الذكر، قيامه) ألفاظ فقهية، وقد جاءت لينة سهلة لا تحتاج إلى توضيح وإبانه، كما أنها ذات عاطفة إيمانية، يتبدى فيها احساس ابن النضر بحبه لعقيدته، وتوظيفه فكره الصافي لخدمة الدين والإسلام.

ولا شك أنّ الألفاظ هي الوسيلة الفعالة التي تعمل على نقل تجربة الشاعر إلى المتلقي؛ ولذا عليه أن يختار الكلمات ذات الإيحاء الفني، كما أنّ تناسب الألفاظ مع دلالة العرض يؤدي إلى توضيح المعنى المقصود الذي يرنو إليه الشاعر، وفي ذلك يقول ابن النضر: (من الخفيف)

عَزَم الحج فاستعدَّ الجمالى
ثم عالى على الجمال الرَحالا
وأجاب الندا واعتزلَ الأهل
وخلا الاولاد والأموالا
وعصَى العاذلين في الله لما
عاذلوه وفَارَق العذالا
فبكى حين ودعوه وأبكى
الأهل حزنا وداعه والعيالا(٥٠).

فألفاظ هذا المعجم جاءت مرنة واضحة، ذات إيحاء فني وعاطفة صادقة، وإحساس بالمشاعر، ويمكن أن يقال عن هذه الأبيات إنها خبرية، لا تخلو من تحريك العواطف، ودغدغة الأحاسيس، كما إنها عند قراءتها تشيع فيها النغمة الموسيقية، فهو لم يجعل جميع قصائده خالية من الإيحاء والتصوير؛ حتى لا يفقد الشعر روحه؛ لأن " المراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية أعود براحة النفس، وأعون على تحصيل الغرض المقصود ... والشعر المراوح بين معانيه أفضل من الشعر الذي لا مراوحة فيه "(٥١).

كما أن أشعار ابن النضر لم تخلُ من غرابة الألفاظ، وهذا لم يكن عيبا إذا كان الموقف يقتضي ذلك، وفي ذلك يقول قدامة بن جعفر: " إن الإغراب لا يعد عيبا على الإطلاق وأمكن أن يكون حسنا، إذا كان يحتاج للخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة واليأس والرهبة "(٥٢). ومن أشعاره في هذا المجال: (من الرمل)

لستُ أبكي لخيالٍ إنْ طرق
وغرابٌ هبّ صبْحا فنعقْ
وسنيحٍ وبريحٍ عَرَضا
وقعيدٍ من عَلا نشرٍ خفقْ
وسُلاف سلفتْ أيّامها
واصْطفاق من سماعٍ مصطَفقْ
وصبوحٍ وغبوقٍ بعدهُ
ورخيمِ الدلّ ميّاس فُنُقْ(٥٣)

فالألفاظ (سنيح، بريح، قعيد، خفق، اصطفاق، وغبوق) ألفاظ غريبة، كما إنها قليلة الاستعمال، فهو سلك الأسلوب المتباين في اختيار ألفاظه – حسب الموضوع الذي يتناوله – وهو مطلب يتفق مع نقادنا القدامى، فيرى القاضي الجرجاني " أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك ولا هزلك بمنزلة جدك ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه "(٥٤).

التضمين من الشعر العربي:

لقد بات استدعاء النصوص الشعرية التراثية حتمية لا مفر منها؛ لما يحمل – الشعر التراثي – من قيم إنسانية، وفكرية، وجمالية تمثل العربي بكل أطيافه البدوية والريفية والحضرية(٥٥)، ولهذا اتجه شعراء الفقه العماني إلى مخاطبة الشعر التراثي، وتوظيفه في أشعارهم الفقهية بصورة واضحة لها مكانتها الأدبية.

وقد اهتم النقاد قديما وحديثا بظاهرة استدعاء التراث الشعري، وأطلقوا

عليه التضمين، فتنوعت تعريفاتهم حوله، يقول عنه صاحب العمدة: " فأما التضمين فهو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل "(٥٦).

أما الخطيب القزويني فقد عرفه "هو أنْ يُضمِّن الشاعر شيئا من شعر الآخرين مع التنبيه عليه إنْ لم يكن مشهورا عند البلغاء "(٥٧).

وهم يريدون بذلك التأكيد، واستحضار روح الشعر الذي ضمنوه أشعارهم؛ لتضفي على شعرهم دلالات لفظية ومعنوية رائعة، وفي هذا يقول أحد الدارسين: " والتضمين أنْ يُضمِّن الشاعر شعره. كلاما آخر لغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر التضمين لكان المعنى تاما، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره نصف بيت أو أقل منه "(٥٨) ومن هؤلاء الفقهاء العمانيين الذين ضمنوا أشعارهم شيئا من أشعار العرب ابن النضر.

ولعل نشوء ابن النضر تحت مظلة ثقافية واسعة، فقد أثر هذا إيجابا في معجمه الشعري، ومن يتصفح أشعاره يجدها تزخر بموروث الشعر العربي، كقوله: (من الطويل)

أقلّي عليَّ اللّومَ والعذْلَ في الصبا
كفاكِ اللّيالي لوْمُ كُلِّ مُلومِ(٥٩).

وهذا يذكرنا بقول أبي نواس في مطلع إحدى قصائده: (من البسيط)

دَعْ عنكَ لومي فإنّ اللّومَ إغراءُ
وداوِني بالّتي كانْت هيَ الدّاءُ(٦٠).

فاللفظة التي ضمن ابن النضر بها شعره هي (اللوم)، وقد خاطب بها المرأة، وطلب منها أن تقلل عنه لومها وعتابها له، أما أبو نواس فخاطب بها المذكر، بدليل كلمة (دعْ)، وهما في الحالين يمثلان العاذل الذي ينهى عن متعة الحب والخمر.

وقوله: (من الطويل)

هوَ الدَّهْرُ يَأْسُو مَنْ أرَادَ ويَجْرَحُ
وَأَحْداثُهُ في الشَّمّخ الشُمِّ تُقْدَحُ(٦١).

الدهر مصائبه عظيمة؛ فهو يجرح، كما أنه يداوي هذه الجروح، فهو متأثر بقول ابن زيدون: (من مجزوء الرمل)

ما عَلى ظنّيَ باسُ
يجْرحُ الدّهرُ ويأسُ(٦٢).

ولفظة (يَأْسُو) تأتي بمعنى: يداوي؛ للدلالة والتبيان على استمرارية جرح الدهر ومداواته للجرح، وإن كان ابن النضر قد توجه في بيته إلى شدة الأسى من الدهر وأنّ أساه يقدح حتى في الجبال الشامخات.

على أنّ استدعاء التراث الشعري لا يأتي على كيفية واحدة، وإنما على أساليب مختلفة " وقد تكون تناصات التوظيف الأدبية أو الثقافية مباشرة أو غير مباشرة، بمعناها أو مبناها بوعي أو بدون وعي "(٦٣).

ومثل هذا يتناسب مع ما قاله ابن النضر: (من الرمل)

لا تَلُوميه عَلَى مَا صَنَعَا
كلُّ ما طارَ وشيكاً وَقَعَا(٦٤).

فلا تلم الآخرين على أفعالهم الذميمة؛ فسيأتي يوم يقعون فيه، كالطائر الذي يطير فهو على وشك الوقوع مهما طال طيرانه، وهذا يذكرنا بقول الشافعي: (من مجزوء الرجز)

مَا طَارَ طيرٌ وارْتَفَعْ
إلّا كَمَا طَارَ وَقَعْ(٦٥).

فالمعنى واحد، وإن اختلفت الألفاظ في التعبير عنه عند الشاعرين.

وذكر ابن النضر في بعض مقدمات قصائده ألفاظا استمدها من المقدمات الطللية لشعراء الأدب العربي فقال: (من السريع)

ما هاجني رسْمٌ ولا مرْبعُ
ولا شجَاني طللٌ بلقعُ(٦٦).

فلفظة (طلل) جمعها أطلال: ما شخص من آثار الديار والرسم جمعها رسوم وتعني ما كان لاصقا بالأرض(٦٧)، فهو متأثر بشعراء العصر الجاهلي فيما ذكروا به الطلل والرسم، ومنهم طرفة بن العبد الذي يقول: (من الطويل)

لخولَة أطْلالٌ ببرْقَة ثَهمَد
تلوحُ كباقي الوَشم في ظاهرِ اليد(٦٨).

وهكذا اتضح لنا أن ابن النضر قد ضمن شعره الكثير من ألفاظ الشعر العربي في موضوعات عدة، ولا سيما في مقدمات قصائده حيث ذكر الرسوم والأطلال، وآثار المحبوبة والديار، ولوّح بذكريات الغزل بعد أن وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا.

المصادر والمراجع:

١- الأدب الجاهلي قضاياه – أغراضه –أعلامه – فنونه، غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، المطبعة العلمية – دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٨.

٢- معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية (قسم المشرق)، فهد بن علي السعدي، مكتبة الجيل الواعد، سلطنة عمان، ط١، ٢٠٠٧م، المقدمة.

٣- منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، خميس بن سعيد بن علي الشقصي، مكتبة مسقط، مسقط – عمان، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ١/ ٥.

٤- ينظر، كتاب (دعائم الإسلام) لابن النضر العماني (ق٦هـ / ١٢م) وشروحه نموذج للعلاقات العمانية المغربية، بحث علمي شارك به مهنا بن راشد بن حمد السعدي في الأيام الدراسية العلمية التي نظمتها مؤسسة الشيخ عَمِّي سعيد بغرداية/ الجزائر، تحت عنوان: " من الشيخ عَمِّي سعيد بن علي الجربي (ت: ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) إلى الشيخ حمود ابن موسى عَمِّي سعيد (ت: ١٤٢٥هـ /٢٠٠٥م) مسيرة علمية تربوية اجتماعية دعوية رائدة... ومتواصلة "، أيام: ١٠، ١١، ١٢ شوال ١٤٢٧هـ / ١، ٢، ٣ نوفمبر ٢٠٠٦م، ص١٢٥.

٥- قراءات في فكر أحمد بن سليمان بن النضر السمائلي، المنتدى الأدبي – وزارة التراث والثقافة، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص١٢٥.

٦- اللمعة المرضية في أشعة الإباضية، نور الدين السالمي، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، مطابع سجل العرب، العدد الثامن عشر، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٥.

٧- كتاب الدعائم، أحمد بن النضر العماني، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، المطبعة الشرقية ومكتبتها، ١٩٨٠م، ص١٠.

٨- قراءات في فكر أحمد بن سليمان بن النضر السمائلي، المنتدى الأدبي – وزارة التراث والثقافة، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ص٩٢.

٩- شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان، محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، ط ٢، ١٩٨٩ م، ٢/ ٣٢٤.

١٠- قراءات في فكر أحمد بن سليمان بن النضر السمائلي، ص١٨، ١٩.

١١- كتاب الدعائم، أحمد بن النضر العماني، ص٧.

١٢- إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان ج ٣، سيف بن حمود البطاشي، رتبه وعلق عليه سعيد بن محمد الهاشمي، نشره مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ١/ ٣٨٨.

١٣- روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن، نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان السالمي، مكتبة السالمي – بدية، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٢٧، ٢٨. كتبة السالمي – بدية، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ٢٨.

١٤- كتاب الدعائم، أحمد بن النضر العماني، ص٢١١.

١٥- كتاب شرح الدعائم، محمد بن وصاف، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٩٨٢م، مقدمة المحقق، ١ / ح – ي.

١٦-كتاب الدعائم، ص٩٨.

١٧-كتاب الدعائم، ص١٢٠، ١٢١.

١٨-كتاب الدعائم، ص١٥٩.

١٩-كتاب الدعائم، ص١١٨.

٢٠-كتاب الدعائم، ص٩٨.

٢١-كتاب الدعائم، ص٩٢

٢٢-كتاب الدعائم، ص٦٠.

٢٣-كتاب الدعائم، ص٥٢.

٢٤-العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، ابن رشيق القيرواني، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع، ط١، ٢٠٠٦م،١/ ١٩٨

٢٥-كتاب الدعائم، ص١٩.
٢٦ -كتاب الدعائم، ص١٥١.
٢٧-جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمي، قرأه وعلق عليه يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤١.
٢٨-كتاب الدعائم، ص١٢٥.
٢٩-كتاب الدعائم، ص٨٦.
٣٠-ديوان بشار بن برد، تقديم وشرح: محمد الطاهر بن عاشور، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، د. ت، ١ / ٣٣٤.
٣١-العمدة، ابن رشيق، ١ / ٢٤١.
٣٢-كتاب الدعائم، ص٤٥.
٣٣ -كتاب الدعائم، ص١١٠.
٣٤ -العمدة، ابن رشيق، ١ /٤٣٨.
٣٥-علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، ص ١٧٤.
٣٦-الاستعارة نشأتها / تطورها / أثرها في الأساليب العربية، د. محمود السيد شيخون، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٠٣.
٣٧-كتاب الدعائم، ص١٣٨.
٣٨-كتاب الدعائم، ص٥٢.
٣٩-البلاغة الواضحة البيان المعاني البديع، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف – لبنان، مطابع دار المعارف بمصر، ط٢١، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م، ص١٢٥.
٤٠-دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، د. ت، ٥٢.
٤١-الشعر العماني مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية، د. علي عبد الخالق علي، دار المعارف – القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٧٢.
٤٢ -كتاب الدعائم، ص١٥٦.
٤٣-كتاب الدعائم، ص٨٦.
٤٤ -كتاب الدعائم، ص٣٦.
٤٥-النقد الأدبي الحديث مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه، د. العربي حسن درويش، دار الفكر العربي، ١٩٩٥م، ص٢٠٣.
٤٦-الصورة الفنية في ديوان الشريف المرتضى دراسة نقدية رسالة ماجستير، طاهرة بنت عبد الخالق اللواتية، قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ م، ص ٢.
٤٧-قطرة من يراع الأدب والاجتماع، أحمد زكي أبو شادي، مطبعة الظاهر، ١٣٢٦هـ، ١ / ٥٣ .
٤٨ -علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٩٨٨م، ص ٣٢١.
٤٩ - الدعائم، ص ٥٢
٥٠ -الدعائم، ص ٦٧، ٦٨.
٥١-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب ابن خوجه، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٦م، ص ٣٦١.
٥٢-نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٩١.
٥٣-الدعائم، ص ١٠٩.
٥٤-الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم والبجاوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م، ص ٢٢.
٥٥ - تطور الشعر العماني المعاصر في النصف الثاني للقرن العشرين، محمد بن مسلم المهري، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية – دمشق، ط١، ٢٠١٠م، ص ٥٠٥.

٥٦ – العمدة، ابن رشيق، ٢ / ٨٤.

٥٧ – شرح التلخيص شرح محمد هاشم دويدري، الخطيب القزويني، دار الحكمة، دمشق، ط١، ١٩٧١م، ص ٢٠١.

٥٨ – هلال بن بدر البوسعيدي أصداء ثقافة عصره، عبد الحفيظ محمد حسن، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧، ص ١٠٤.

٥٩ – الدعائم، ص ١٣٨.

٦٠– أعلام الشعر العربي، جمع وإعداد تميم محمود فاخوري ومريم شبلي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م، ص ١٥٩.

٦١– الدعائم، ص ٩٨.

٦٢– ديوان ابن زيدون، شرح الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ١٣٨.

٦٣– التناص نظريا وتطبيقيا، أحمد الزعبي، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ٢٠٠٠م، ص ١٢٧.

٦٤– الدعائم، ص ١٣٣.

٦٥– ديوان الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ)، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي، المكتبة الثقافية – بيروت، ١٩٧١ م، ص ٥٧.

٦٦– الدعائم، ص ٦٠.

٦٧– لسان العرب (طلل)، ابن منظور، دار الحديث – القاهرة، طبعة مراجعة ومصححة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ م.

٦٨ – شرح المعلقات السبع، أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، الزوزني، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د. ت، ص ٦٥.